بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠١٣)

"الباب الثالث (أصل الفينيقيين - الفينيقيون بالجزائر - تأسيس قرطاجنة - ممتلكات قرطاجنة بالجزائر - اللغة الفينيقية وخطّها)"[١].

[١ - أصل الفينيقيين]

الفينيقيون أمة سامية[٢] من ولد كنعان بن عمليق بن لاوذ بن سام ابن نوح عليه السلام[٣].

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللّٰهُمَّ صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى صحبه وآله أجمعين، اللّٰهُمَّ لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللّٰهُمَّ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وألحقنا بالصالحين.

وبعد: فقد طرقنا الباب الثالث من كتاب تاريخ الجزائر وهو في ذكر الفينيقيين، المؤلف الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ ذكر تمهيدا عرّف به أو فيه بالفينيقيين، وأنهم قوم وطنهم فينيقيا وهي قطعة من الشام ضيق مستطيلة على سيف البحر، يعني على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وأنه كانت لهم هجرات من الجنوب الشرقي ونزلوا بهذه الأرض، وكانت غالب أعمالهم التجارة، والسفر البحري، وكانت لهم مراسٍ كثيرة، وأخذوا في طرق كثيرة، تعرفوا عليها وأنشأوا فيها مراس بحرية، وكذلك مدن، ومنها نزولهم في هذه الأرض. انتهينا عند أصل الفينيقيين.

[٢] نسبة إلى سام من ولد نوح ﷺ.

[٣] قد ذكرنا سابقا شيئا ما يتعلق بالأنساب، ولكن الذي يُعلم من الأنساب، جزما ينتهي إلى عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل ﷺ نسب النبي ﷺ ينتهي إلى عدنان، وجزما عدنان من ولد إسماعيل وهذا جاء في الحديث، ولكن ما بين عدنان إلى إسماعيل كم من رجل؟ أقل ما قيل سبعة، وأكثر ما قيل ثلاثون أو أربعون، إسماعيل ابن إبراهيم، ثم بين

كانوا كبقية الكنعانيين- بجزيرة العرب على الخليج الفارسي وانتقلوا إلى الشام مع إخوانهم من كنعان واختصوا بفينيقيا وصار الشام يقال له أرض كنعان[1].

قال ابن خلدون: ومؤرخو بني إسرائيل يقولون إن الكنعانيين الذين كانوا بالشام هم من كنعان بن حام وأن العمالقة من ولد العيص ابن إسحاق ابن ابراهيم ﷺ وقال في سياق أبناء حام: ومنهم كنعان باتفاق.

فيستفاد منه أن كنعان الذي ينسبه العرب إلى عمليق غير كنعان ابن حام، وأن الخلاف بين مؤرخي العرب والإسرائيليين إنما هو في نسب كنعاني الشام: هل هم من كنعان بن عمليق أم من كنعان ابن حام[2]؟ ويظهر من كلامه في موضع آخر أنه يؤيد قول مؤرخي بني اسرائيل حيث قال في الكلام على أبناء كنعان بن حام: أن منه أمة كانت بالشام " وانتقلوا عندما غلبهم عليه يوشع إلى إفريقية فأقاموا بها[3]" ومنه أمة كانت ببيت المقدس " وهربوا امام داوود عليه السلام حين غلبهم عليه إلى إفريقية والمغرب وأقاموا بها والظاهر أن البربر من هؤلاء المنتقلين أولا وآخرا[4]. إلا أن المحققين من نسابتهم على أنهم من ولد مازيغ بن كنعان، فلعل مازيغ ينتسب إلى هؤلاء"[5].

إبراهيم ونوح ﷺ كم من ولد؟ يذكرون ثلاثة وأربعة، وخمسة، ثم بين نوح وآدم جاء في الأثر عن ابن عباس أنها عشرة قرون.

فالذي هو محل اتفاق انتهاء الأنساب إلى عدنان، من فوق عدنان ليس ثمة قطع، وإن كان من النسابين من يجزم ببعض الأنساب لأنها توارد عليها النسابة الذين اختصوا بعلم الأنساب، فمنهم من يرجح طريقا للتوارد أكثر من تكلم في الأنساب عليه، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ ذكر نسبه، وانتهى نسبه إلى عدنان، في بعض الروايات زيادة (كذب النسّابون) [ضعيف الجامع ٤١٦٦] وهذا أظنه فيه كلام، لكن المقصود أن ما فوق عدنان لا يوجد ما نجزم به، وإنما هي أقوال متضاربة، ولا يمكن الجزم بها، لكن فيه جزم بأصول عامة ككون إبراهيم من ولد نوح، ومن أبناء نوح سام وحام ويافث، فهنا ذكر أنهم من ولد كنعان ينتهون إلى نوح.

[1] ولهذا يسمون بالفينيقيين، ويسمون أيضا الكنعانيون.

[2] يعني فيه كنعان الذي هو من ولد سام، وفيه كنعان الذي هو من ولد حام.

[3] يعني هؤلاء الفينيقيون من كنعان الذي هو ابن حام.

[4] الأول الذين فروا من يوشع، والثاني الذين فروا من الملك الذي كان في زمن داود ﷺ.

[5] هذا من كلام ابن خلدون.

وإذا أيد ابن خلدون قول مؤرخي بني اسرائيل في كنعاني الشام فإن الفينيقيين ليسوا منهم بل هم ساميون من غير نزاع. غير أن ما استظهره من انتساب البربر إلى تينك القبيلتين ليس بظاهر وقد مر في الباب الثاني[1] (٢، ٣) ما يغني عن التعرض هنا لبطلان استظهاره.

والخلاصة أن الفينيقيين إخوان العرب في نسبهم وجيرانهم الأقدمون في وطنهم[2].

[1] يعني هل البربر من الفينيقيين؟ لا، وإنما الفينيقيون نزلوا ها هنا.

[2] فالفينيقيون من بني كنعان وهم من إخوان العرب وهذا باتفاق، أما البربر فقد حكينا الخلاف سابقا.

[٢ - الفينيقيون بالجزائر[١]]

الفينيقيون أمة تجارية لا شأن لها بالحروب[٢]. وقد كانوا أيام ازدهار مدينة صيدا متوجهين في تجارهم إلى المشرق[٣]، واستعمروا فيه - استعمارا تجاريا - جزيرة قبرص وجزر بحر هيجاي. وخاضوا البحر الأسود وبلغوا القفقاس.

وفي القرن الثالث عشر (ق. م)[٤] سقطت مدينة صيدا بهجوم الفلستينيين عليها لغنم ثروتها. فورثتها مدينة صور في سعة العمران وعظمة التجارة. وزاحم اليونان الفينيقيين في المشرق فالتفتوا إلى البحر الأبيض والمغرب بسفنهم التجارية وأسسوا بجزره مراكز تجارية بصقلية ومالطة وسردانيا والجزائر الشرقية وبلغوا إسبانيا وأسسوا بها مدينة قادس.

صار الفينيقيون يترددون ببضائعهم بين الشام والأندلس. يقطعون مضيق جبل طارق مقتربين من سواحل ليبية حتى أذا بلغوا صقلية أبعدوا عن الساحل الإفريقي.

---

[١] الفينيقيون كانت لهم هجرات وهاجروا في البلاد كثيرا، شرّقوا وغرّبوا، حتى نزلوا أرض الهند، وكانوا في كل هجراتهم يبنون مدنا صغيرة أو مراسي بحرية، ينزلون بها ويجعلونها مواضع للتواصل التجاري البحري الذي يقومون به.

[٢] لم يكن لهذا الوسم، ولهذا الذين كانوا في هذه الأرض، البربر كان لهم توافق مع هذه الأمة أكثر من غيرها، لأن غيرها كان شأنه الاستبداد والتسلط، وأخذ الثروات، وأما هؤلاء فكانوا مسالمين.

[٣] صيدا هذه مدينة من المدن التي أسسها الفينيقيون أنفسهم، سميت صيدا نسبة لصيد السمك، وهي الآن موجودة تابعة للجمهورية اللبنانية، ومثلها كذلك مدينة الصور، وبين الصور وصيدا، نحو سبعين ميلا أو قريبا من ذلك، وهي أيضا من المدن التي أنشأها الفينيقيون، ومثل ذلك قبرص وصقلية وردوس وغيرها من المدن، فهي مستوطنات كان للفينيقيين إسهامات في بنايتها، كأنها محطات يمرّون عليها.

[٤] التاريخ يحدد في بعض الكتب التاريخية بما بعد الميلاد، وقبل الميلاد، ما قبل الميلاد كلما كان العدد أقل، كلما كان أقرب مما هو أكثر، يعني القرن ١٣ قبل الميلاد، بعيد عن القرن ٥ قبل الميلاد.

وكانت تجارتهم مع الليبيين مقايضة[1]: يأخذون منهم الأنعام والأصواف والجلود وريش النعام والعاج ويدفعون لهم عوض ذلك أقمشة مصبوغة بالحمرة وأسلحة وخمرا وأواني من الزجاج والطين[2].

---

[1] هذا من سبل التجار قديما، المقايضة وحقيقتها بيع سلعة بسلعة، هذا الذي كان عليه الأمر قديما في التجارات، يعني يكون عنده سلعة صوف، ويحتاج الحديد، فيعطيه صوفا ويأخذ الحديد أو العكس، أو حتى في الخضروات والأطعمة، أو في الألبسة والمواد الخام، تسمى المقايضة.

[2] هذه هي المقايضة وهي جائزة، ومشروعة، لا تزال إلى هذا الزمان، لكن الآن في شريعتنا ينتبه إلى الأجناس الربوية، فالتبايع في الأجناس الربوية لابد أن يلاحظ فيه، إذا اتحد الجنس لزم التماثل والتقابض، وإذا اختلف الجنس لزم التقابض ولا يلزم التماثل، والأجناس الربوية المقصود بها الآن النقود أو الأطعمة، لأن النبي ﷺ ذكر ستة قال (الذهب بالذهب، والفضة بالفضة والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلا بمثل، سواء بسواء يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى) وقال (الذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد لا تشف بعضها على بعض، والفضة بالفضلة مثلا بمثل يدا بيد لا تشف بعضها على بعض) الحديث، فالذهب والفضة النقدان، والبر الذي هو القمح، والشعير والتمر والملح هذه الأطعمة، فالتبادل بين الذهب والفضة، إذا كان جنسا واحدا، ذهب بذهب، فضة بفضة، لزم المثل والتقابض، ١غ بـ١غ يدا بيد، ١٠غ بـ١٠غ يدا بيد، لهذا لا يجوز بيع ذهب بذهب وفيه شيء، فيه جوهرة أو فيه شيء غير الذهب، لأنه يختلف وزنه، وهذا جاء في الحديث في صحيح مسلم، حديث فضالة بن عبيد، وأنه ابتاع عقدا باثني عشر درهما، فلما فصله وجده ثلاثة عشر درهما، فنهى النبي ﷺ عن ذلك حتى يفصَّل، أما إذا اختلف ذهب بفضة جاز التفاضل، ولكن لابد أن يكون يدا بيد، في الأطعمة أيضا القمح بالقمح، والتمر بالتمر، أو الشعير بالشعير، والملح بالملح، لابد أن يكون من التماثل والتقابض، لكن إذا اختلف تمر بقمح أو شعير بملح أو قمح بشعير فهنا يجوز التفاضل، ويجب التقابض، فالمقايضة هي هذه.

وهذه الأصناف الذهب والفضة هل يلحق بها غيرها أو لا؟ وهذه الأطعمة يلحق بها غيرها أو لا؟ اختلف أهل العلم، من العلماء من بقي على ظاهر الحديث، وقال: لا يجري الربا إلا في هذه الستة، يعني الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح، لا يُزاد على هذا، النقدان والأطعمة، فهذا ليس فيه الربا، فإذا كان في غير الذهب والفضة يجوز، وكذلك في غير الأطعمة هذه يعني في الفاصولياء أو العدس أو الجلبانة، أو حبوب أخرى فهو جائز.

وذهب أكثر العلماء إلى أن الربا يتجاوز هذه الستة فالنبي ﷺ ذكر الذهب والفضة إشارة إلى ما يتموّل به الناس، ما يتخذونه أثمانا، وقيما للمتلفات، فهذا يجري فيه الربا، ذكر الطعام فذكر القمح والشعير والتمر والملح، وخالف بينها، فعندك القمح والشعير هذا من القوت لابد منه، والتمر الشيء الذي قد يتفكه به وأيضا يدخر، والملح شيء يصلح الطعام، فقالوا أشار بكل جنس إلى ما يلحق به، ثم اختلفوا ما هي العلة التي بها يكون الإلحاق، هل هو مجرد الطعم، وهو قول الشافعية، أو هو مجرد كونه قوتا مدخرا وهو قول المالكية على المشهور، أو كونه موزونا أو مكيلا طعاما كان أو غير طعام وهو قول الأحناف، أو كونه طعاما مكيلا أو موزونا وهذا قول الحنابلة.

وللاتجار مع الليبيين أسسوا بسواحلهم مراكز يستريحون بها من عناء السفر[١] ويتزودون منها ويصلحون سفنهم. وقد راعوا في موقع مراكزهم أمرين[٢]: الامتناع ممن يريدهم بسوء، والتمكن[٣] من نقل بضائعهم بسهولة. فنزلوا لذلك الجزر القريبة من الساحل الليبي، والربى[٤] الساحلية، وما قرب من مصب الأودية في البحر[٥].

وعليه فمن اشترط الطعام فالربا إنما يكون في مطعومات فلا يجري في غيره، مثل الحديد أو الورق أو الشيء المعدود، فهذا المقايضة فيه جائزة، وإن لم يتحقق التماثل والتقابض، ومن لم يشترط الطعام كالأحناف فهؤلاء يرون أنه قد يكون الربا في هذه الأشياء.

الحاصل كانت تجارة الفينيقيين مع الليبيين مقايضة، والمقايضة المقصود منها ما ذكرت.

[١] هذا من عمل الفينيقيين، لأنهم أكثروا وكانت لهم مستوطنات كثيرة ينزلون فيبنون مرسى لتتوافد عليه سفنهم، وربما بنوا أيضا مدينة صغيرة بها، فيجعلونها مركز وواسطة تواصل.

[٢] يعني المركز الذي ينزلون فيه للبناء حتى يجعلون نقطة تواصل، راعوا أمرين.

[٣] وهذا الثاني.

[٤] جمع رابية وهي المكان العالي.

[٥] يعني هذه الأماكن التي ينبغي أن ينزل فيها، وهذا مما يستفاد، فالإنسان إذا كان في طريقه أن يتخير الأماكن التي ينزل فيها، فيختارون المكان الذي يتمنعون فيه ممن يريدهم بسوء، يعني مكانا يكون فيه حيطة لهم، يعني من أمثلة هذه الأمكنة أن تختار مكانا عاليا، بحيث يكون من خلفك جبال، أو من خلفك صخور عظام، فلا يستطيع أحد أن يأتي من خلفك، وأنت تكون في مكان عال، فالذي يأتيك يأتيك من هذه الجهة المقابلة ويكون أسفل فتتمكن منه، لا يمكن أن يصل إليك، وهذا الذي كان عليه كثير من السابقين في هذا البلد، فإذا سافرت في هذا البلد، في ربوع البلد ونظرت إلى بعض القلاع التي بنيت من القديم فإنهم على هذا المبدأ، تجدهم على هذا المبدأ.

والأمر الثاني التمكن، يختارون مكانا يحقق لهم الامتناع من العدو، ويحقق لهم إمكانية نقل البضائع بسهولة، ويدخل في هذا أمر آخر وهو أن يكون ماكنهم قريب من الماء، لأن الماء أمر ضروري، أو ييسرون سبل الأودية إليهم.

ومن هذه المراكز حضرموت[1] (سوسة)، عويتقة (بو شاطر). وهما بإيالة[2] تونس، ومنها هبون (بونة)[3]، اجلجي (جيجل)، صلداي (بجاية)، وهذه بالوطن الجزائري[4]. ومن المراكز المنسوبة لهم أيضا عوزية. ويقولون إنها سور الغزلان وقد غلّط اغسال القائلين بذلك مستندا إلى انها في دواخل الوطن الجزائري، ولم يعرف في التاريخ بلوغ الفينيقيين إلى تلك النواحي[5].

وعليه فإن صح أن عوزية هي سور الغزلان فهي من مؤسسات البربر، وإن صحت نسبتها للفينيقيين لم تكن هي سور الغزلان بل مدينة أخرى على السواحل لا ندري مكانها.

ويقال إن مؤسسات الفينيقيين بالساحل الليبي بلغت ثلاثمائة مركز، وهو إحصاء قريب من المعقول لأن السفن كثيرا ما تحتاج إلى الإصلاح وسيرها بطئ، فأهلها مضطرون إلى الاستراحة والاستعداد للسفر بعد السير الكثير والمسافة القليلة. وقد يؤسسون مركزا ثم، يبدوا لهم ما هو أوفق منه فينتقلون إليه، وبذلك تتقارب المراكز وتكثر[6].

---

[1] حضر موت هذه مشهورة في اليمن، لكن لا يمنع أن يتكرر الاسم من بلد إلى آخر، وهذا مما استدل به بعض من ألف في بيان أصل البربر أن لهم مناطق بأسماء تجدها بأرض اليمن، وبأرض حمير.

[2] جمعها إيالات يعني أقرب معنى لها ما يسمى بالمحافظة والولاية.

[3] عنابة، وفيها كثير من العلماء ينسبون إليها، يقال: البوني.

[4] يعني الفينيقيون صنعوا هذه المراسي، وهذه المدن بنوها.

[5] يعني سور الغزلان منطقة داخلية، هل وصلها الفينيقيون أو لا؟ الذي غلب على الفينيقيين أنهم أهل بحر وتجارة بحرية، فيبعد أن يكونوا قد وصلوا، ولكن هذا غير ممتنع، فمنهم من ذكر أنهم وصلوا، وبعضهم أنكر ذلك.

[6] وتقارب المراكز هذا من حسن العمران، ومن حسن البناء في البلد، وقد عد الله ﷻ ذلك نعمة على قوم سبأ {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}سبأ١٨-١٩، يسر الله لهم بناء قرى بعضها أمام بعض، فهو يسافر لكنه كأنه ما خرج من بلده، لتجاور القرى، بلدة أمام بلدة، وهذا أمام النِّعم، لو سافرت أنت مسافة طويلة، وتتجاور فيها المدن، فهذا أوفق لك، لأنه يعين على السفر، ويعين على قضاء الحوائج، وتيسير الأمور، لكن إذا سافرت بين بلدة وأخرى مئات الكيلومترات، والمسافات الطويلة، فلربما تتيه، مثلما عندنا في الصحراء، إذا ذهبت إلى الصحراء ولم يكن معك من يعرف الطريق، تمشي وتمشي ثم تقول أنا ضائع أكيد، لأنه أحيان بين البلدة والأخرى مائتين، ثلاثمائة كيلو متر، طريق مسطحة مستقيمة لا ترى شيئا يمينا ولا شمالا، فكون البلدان قريب بعضها من بعض والمدن في البلد هذا من النعم، وقد ذكر الله منته

وقد تحول بعض هذه المراكز من بعد إلى مدن ذات فحوص واسعة أو ضيقة. وكثير منها سقط وعفا رسمه[1].

قال اغسال: " وليس بين دفتي التاريخ ما يرشدنا إلى تعيين الوقت الذي وجدت فيه تلك المؤسسات بالضبط. والظاهر أنها كانت قبل انتهاء القرن الثاني عشر (ق. م)[2]"

على قوم سبأ بذلك، ولكن لم يريدوا هذا { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، قرئت هذه الكلمة {باعد} بقراءات، { فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا }، { فَقَالُوا رَبَّنَا بعِّد بَيْنَ أَسْفَارِنَا }، { فَقَالُوا رَبَّنَا باعَدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، { فَقَالُوا رَبَّنَا بعّدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا }، المهم المقصود أنهم ترجوا وطلبوا ذلك، وتركوا هذه النعمة العظيمة.

[1] عفا يعني زال، ورسمه يعني أثره.

[2] أي قبل ميلاد المسيح فيما يذكرون.

[٣ - تأسيس قرطاجنة[1]]

كانت صور (العاصمة الثانية للفينيقيين)[2] بلغت مبلغا عظيما من العمران. وكان بها على عهد داوود وسليمان عليهما السلام ملك يدعى حيرام. سالَم هذا الملك الملكين النبيين[3]، وحسَّن علاقاته معهما. وبعد وفاته تأسس بها حزب من عملة الشعب وأصبح يشاغب طبقة الأعيان حتى تغلب عليهم ففروا إلى ليبية وأسسوا بها مدينة قرطاجنة.

وبعد أمد قليل من تأسيسها بلغت من العظمة والقوة أن صارت تهدد صور نفسها وأصبحت هي الحامية للفينيقيين بليبية وصقلية وإسبانيا. وكان اليونان قد أخذوا عن الفينيقيين التمدن[4] فانقلبوا عليهم وقادوهم في التجارة حتى أخرجوا من بحر إيجه، وهددوا مراكزهم بالمغرب فلما تأسست قرطاجنة ثأرت منهم وطردتهم من المغرب[5].

أسست قرطاجنة على الخليج التونسي قريبا من البحر بحيث تصيب سورها أمواجه. ولحسن موقعها حازت السيادة التجارية، فأمها الفينيقيون من الشام[6]، والبربر جيرانها الأقربون، وغيرهم من الأمم، فاستبحر[7] عمرانها وكثرت مبانيها وسكانها، واختلف في تقدير عدد السكان من (١٣٠٠٠٠) إلى (٧٠٠٠٠٠) وبلغت أوج عزها في القرن الرابع إلى أواخر الثالث (ق. م) ومتوسط سكانها إذ ذاك نحو (٣٠٠٠٠٠).

---

[1] قرطاجنة هذه أسسها الفينيقيون، لهذا يسمون بالكنعانيين والقرطاجنين، وهي على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وقرطاجنة من تونس.

[2] صور هذه على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وقد كانت مركزا تجاريا مهما، وتقع جنوب مدينة بيروت، تابعة للجمهورية اللبنانية.

[3] يقصد داود وسليمان عليهما السلام.

[4] يعني التحضر والتطور، والفينيقيون كما ذكرت قوم كانت لهم تجارة، وكانوا على معرفة بالصناعة والأشياء التي هي من حياة الناس

[5] أي طردت اليونان.

[6] قصدوها. يقال: أمّ بمعنى قصد.

[7] يعني توسع. الاستبحار التوسع، ومنه الحديث لمّا أخذ النبي ﷺ الفرس قال (إن وجدناه لبحرا) [أخرجه البخاري (٢٦٢٧)، وفي ((الأدب المفرد)) (٨٧٩) ومسلم(2307)].

أصبحت قرطاجنة عاصمة الفينيقيين ومعقل عزهم وحصن سعادتهم ثم كانت مقبرة عظمتهم ومدفن مجدهم بما جرته عليها حروبها مع الجمهورية الرومانية التي انتهت بتخريبها سنة (١٤٦) ق. م[١].

يقال: إن اسم قرطاجنة بالفينيقية " قرت حدشت " ومعنى هذا العلم: القرية الحديثة[٢].

أما تاريخ تأسيسها وتعيين مؤسسها فقضية كثر حولها الخلاف واضطربت فيها الروايات، ذكر البكري[٣]: " أن الذي بنى قرطاجنة ديدون الملك زمن داوود عليه السلام " وعليه يكون مؤسسها رجلاً وتأسيسها في القرن الحادي عشر (ق. م) لأن داوود ﷺ كان بين سنتي (١٠٥٥ - ١٠١٤)[٤] وفي ابن خلدون- نقلا عن المؤرخ الروماني هروشيوش-: أن بناءها كان على يد ديدن بن أليثا، وأنه من نسل عيصو بن إسحا. ومن المؤرخين من يقول أسسها الطبقة العليا من الفينيقيين.

وأكثرهم على أن التأسيس كان سنة (٨١٤) وقيل سنة (٨١٣) وقيل سنة (٨٨٠)، على أن المؤسس امرأة تدعى " عليسة ديدون "، وعليسة علمها الشخصي، وديدون وصف لها معناه الفارة.

وسياقة خبرها: أنها من بيت ملك وتزوجت بكاهن مشهور، ولها أخ. ولما توفي أبوهما ورثا ملكه. فعدا أخوها على زوجها وقتله طمعا في كنوزه النفيسة وأمواله الطائلة. ولكن عليسة احتفظت بأموال زوجها وفرت بها الى ليبية فاشترت من البربر مكان قرطاجنة وأسستها[٥].

---

[١] الرومان مخرّبون، يعتدون.

[٢] وذكر هذا أيضا في معنى مدينة صور، قيل هي المدينة الحديثة، أو الجديدة.

[٣] هذا البكري له كتاب في تاريخ الأمم والمماليك والبناءات، اسمه "المسالك والممالك"

[٤] يعني قبل الميلاد، قد يرى أحد هذا فيقول ١٠٥٥، وبعدها ١٠١٤ فأينها الأكبر؟ الأكبر ١٠٥٥، يعني الأصل أنك تضع ١٠١٤ إلى ١٠٥٥، ليس كذلك! لأن الحساب قبل الميلاد، فالأقرب إلى قبل الميلاد ١٠١٤، ولهذا يقول ١٠٥٥ إلى ١٠١٤ قبل الميلاد، فيكون العدد القليل هو الأكبر، والعدد الكبير هو الأقل، بخلاف ما بعد الميلاد، تقول من سنة ١٠٠ إلى ٢٠٠ لأنك تتقدم، لكن إذا قلت قبل الميلاد من ١٠١٤ إلى ١٠٥٥ سترجع للوراء، وقولك ١٠٥٥ إلى ١٠١٤ فأنت تحكي التاريخ وأنت آت.

[٥] على كلٍّ في تأسيسها أقوال كثيرة، ومما ذكر هذا الذي حكاه البكري، وجاء في بعض الكتب أن أول ما دخل موسى بن نصير قرطاجنة أو تونس، سأل عن أكبر وأسن رجل فيها، فدُلّ على رجل قد أسنّ يعني طال عمره حتى سقط حاجباه على عينه، وسأله من بنى هذه البلدة؟ فذكر نحو ما ذكره البكري والله أعلم.

[٤ - ممتلكات قرطاجنة بالجزائر]

عرفت أن الفينيقيين أمة تجارية بحرية، فلم يحملها على دخول المغرب الطمع في انتزاعه من يد أهله والاستبداد عليهم في وطنهم. ولذلك لم تملك منه غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها. وأسست بها مدنا لترويج بضائعها بين الأهالي[١]. واقامت حينا من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدنها بأجور يرضونها[٢]. وتستألف[٣] أمراءهم بالأموال خوفا من غاراتهم[٤].

ولما تأسست قرطاجنة اقتطع الفينيقيون من داخل الوطن البربري قطعة استوطنوها ودخل أهلها تحت طاعتهم. وأطلق على هذا القسم اسم " ليبيا فينيقيا " وعرف الفينيقيون الذين به باسم البونيقيين[٥].

ومن مدن الفينيقيين بالساحل الجزائري: هبون (بونة)، روسفاد (السكيكدة)، شولو (القل)، اجلجلي (جيجل)، صلداي (بجاية) روسوقورو (تاقصبت او دلس او تقزيزن)، رسجونيا (مطيفو)، اقسيوم (الجزائر)، تباسا، يول (شرشال)، صيعة (ارشقول على الظاهر)[٦].

---

[١] هذا الذي كان يفعله الفينيقيون، فنزلوا هذا البلد وقصدوا الساحل، يبنون مرسى لنزول سفنهم، وربما مدنا يرتاحون فيها ويصلحون فيها سفنهم، ثم يبيعون بضائعهم.

[٢] لأن الفينيقيين كانوا أهل تجارة، وصناعة، وبناء، وتحضر وتمدن، وكانوا يستعملون نازلي هذه الأرض وأصحابها في بناءاتهم التي يريدون، فيقولون: تبنون لنا كذا وكذا مقابل أموال، يعني يستخدمونهم عمّالا بأجور يرضونها، وهذه الأجور شيء من الأكل، والطعام، وشيء من اللباس، وشيء من الأمور الثمينة، وهكذا.

[٣] طلب الإلف، وهو من التآلف، والتآنس، والسعي في القرب من الشخص والتراضي معه والمحبة.

[٤] الفينيقيون كانوا يستألفون الأمراء، أمراء البربر ومن يكون على رأسهم حتى لا يعتدى عليهم.

[٥] فإذن الفينيقيون بعد أن نزلوا تونس، وبنوا قرطاجنة، أو نزلوا بها ووسعوها وشيدوها ومتّنوا بناءاتها، ونزلوا أيضا سواحل أخرى، ومنها اقتطعوا شيئا من أرض البربر، وبنوا فيها مستوطنا، وصاروا يتأمرون عليه، ودخل بعض سكانه تحت طاعتهم فسموا بالبونيقيين، فالبونيقيون ينتهي أصلهم إلى الفينيقيين، من حيث تشييد هذه الأرض، ومن حيث من يتأمر عليها، ومن يسكنها، وفيهم بعض من ليس منها.

[٦] هذه بعض المدن التي كانت للفينيقيين على الساحل.

ولم يتجاوز البونيقيون السواحل إلى دواخل الجزائر إلا في الجهة الشرقية حيث كانت نوميديا الشرقية تحت حمايتهم- بأشرف معنى الحماية[١]- ومن مدن هذا القسم[٢]: تغاست- **Thagaste** (سوق اهراس[٣]) مدوروس- **Madoure** - (مداوروش)[٤]، تيفيست- **Thèvesté** -" تبسة"[٥].

ولهذا القسم الداخل تحت أشراف قرطاجنة حدود تفصله عن ليبيا فينيقيا وتلك الحدود خنادق[٦] تعرف بالخنادق الفينيقية.

وبلغت حماية قرطاجنة في الشمال الشرقي لنوميديا إلى رأس بوقرعون "ناحية القل" وجهة ميلة. ومن المحقق أن قرطاجنة لم تدخل تبسة " بالجنوب الشرقي النوميدي" إلا سنة ٢٥٠ (ق. م) ولم تبق بها إلا خمسين سنة[٧]. وبما أن الحماية القرطاجنية لم تكن مصحوبة باحتلال عسكري يفرض على المحتمين

---

[١] ما كانوا يؤذون أهلها، وإنما يحمونهم ويقومون على رعاية أمورهم.

[٢] يعني نوميديا.

[٣] أهراس يطلق على السبع، قيل لعله كان فيها هذا الحيوان بكثرة، فتسمى كذلك، وهذا قد يحتمل، مثل حيدرة، فالحيدرة السبع، فهل التسمية لأجل هذا؟ محتمل والله أعلم.

[٤] بسوق اهراس.

[٥] هذه داخلية بالنسبة للساحل ولكن ليس كثيرا. الحاصل أن البونيقيين هؤلاء، أصلهم الفينيقيون الذين بعد أن تأسست قرطاجنة أخذ الفينيقيون قطعة من أرض البربر، وشيدوها فصال لهم تأمر، وتملّك عليها وسكانها الذين فيها صاروا تبعا لهم، ودخلوا في طاعتهم وهم ليسوا من الفينيقيين بل هم بربر، وشيدت مدنا على الساحل فقط، لأنهم أصحاب تجارة بحرية، لم يدخلوا داخل الأرض إلا من هذه الناحية الشرقية، فعندهم سوق اهراس ومداوروش هذه وتبسة.

[٦] الخندق هو حفر يكون في الأرض، يعني هذه حدود بين فينيقيا، وليبيا بونيقيا، وكلاهما فينيقيان، ولهذا القسم الداخل تحت إشراف قرطاجنة حدود تفصلها عن ليبيا فينيقيا التي كان يحكمها الفينيقيون وغيرها التي هي بونيقيا وأصلها ما سبق.

[٧] يعني تدخل قرطاجنة منطقة تبسة لم يدم طويلا.

طاعة الحامي، ويحمل لإلحاقهم بمستعمراته- استطاع النوميديون طرد البونيقيين بعدا من وطنهم والتمتع بالاستقلال والتنفس في هواء غير مشوب بجراثيم السيادة الأجنبية[1].

ولا يعلم تاريخ زوال السيادة القرطاجنية عن نوميديا بالضبط. ولكن من المحقق أن مداورو ش كانت أواخر القرن الثالث (ق. م) تحت تصرف صيفاقس البربري. ومنذ سنة (١٤٩) ق. م لم تبق لقرطاجنة يد على نوميديا وجميع السواحل والشواطئ الجزائرية. ودخلت المدن الفينيقية بتلك الجهات في حوزة ملوك البربر وبقي لها اسمها الفينيقي إلى أن خربت.

وهذا خلاف ما نراه في عصر المدنية الغربية من تغيير دولها لاسم بعض المدن التي استولت عليها، وإبداله باسم عظيم من عظمائها قد يكون لم يدخل تلك المدينة المنسوبة إليه أو لم يسمع بها فضلا عن أن يعمل بها عملا يبرر نسبتها إليه. أما تسمية الأنهج والشوارع بهذا الوجه من التسمية فمن المألوف الذي ينبو الذهن عند مشاهدته عن التفكير في وجه المناسبة بين الاسم والمسمى. وهكذا يفعل الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا[2].

---

[1] يعني لم يكن للبونيقيين سيطرة وتسلط، ولهذا سكان نوميديا أخرجوا البونيقيين الذين هم أصلا الفينيقيون، أخرجوهم وبقوا يديرون شؤونهم بأنفسهم، لا يحتاجون إلى سلطة أجنبية، هذا حال هذا البلد فهو لا يريد السلطة الأجنبية والسيادة الأجنبية، يريد السيادة من أنفسهم.

[2] كما قال تبارك وتعالى {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}آل عمران١٨٨، فقال هنا بعد أن لم يرض البربر بالسيادة التي كانت من البونيقيين، أخرجوهم وبقيت السيادة لهم من أنفسهم. فصارت تلك المناطق والمدن لملوك البربر، قال (وبقي لها اسمها الفينيقي إلى أن خربت) هذا قد يقال إنه من نزاهة البربر، لأن تلك المدن بناها الفينيقيون، وسموّها، فالبربر لمّا استرجعوا -لأن الأرض أرضهم- أبقوا الاسم عليها، لأن هناك نسبة بين الاسم، والمنطقة، وبقي لها اسمها الفينيقي إلى أن خربت، هذا خلاف ما نراه في عصر المدنية الغربية الآن، يعني يستعمر ويستذل ويتسلط على بلد ثم يسمي بعض مناطقه، ومدنه وطرقه وشوارعه بأسمائهم، ولا علاقة بين الاسم والمسمى، وإبدالها باسم عظيم من عظمائها، قد يكون لم يدخل تلك المدينة أصلا، أو لم يسمع بها، فضلا عن أن يكون قد عمل بها، وأشد من ذلك قبحا، تسمية الشوارع والأنهج بتسميتهم، ولا توجد مناسبة بين الاسم والمسمى. يعني لا يد لهم في مدن أو في طرق أو في بنايات أو تشييد وتسمى بأسمائهم ولا علاقة بين الاسم والمسمى، هذا الذي يقصده هنا.

[٥ – اللغة الفينيقية وخطها]

سترى في الباب التالي تأثير الفينيقيين على البربر في اللغة فمن المناسب أن نقدم ههنا البحث عنها:

الفينيقيون أمة سامية، فلغتهم كذلك سامية، أخت العربية والعبرانية وبما أنهم تجاريون لم تكن لغتهم لغة أدب وإنما كانت لغة علم[١]. ولما انتقل الفينيقيون إلى ليبية دخلت لغتهم مفردات من اللغة الليبية فازدادت ثروة، ولكنها تغيرت-طبعا- عن أصلها فلقبت بالبونيقية.

وقد اضمحل[٢] الفينيقيون وماتت من بعدهم لغتهم. وما بقي منها باللسان البربري دخلت عليه العربية من بعد فتعذر تمييزه.

ولكون هذه الأمة تجارية يلزمها أن تتعلم الكتابة والحساب، فتعلمت عن السريانيين الحساب وأخذت عن المصريين حروف الهجاء واستعملتها في لغتها بعد ما هذبتها وقربتها للفهم.

كانت الحروف المصرية فيها صعوبة من حيث أن منها ما يدل على كلمة، ومنها ما يدل على جزء كلمة، ومنها ما يدل على حرف واحد. وفيها حروف مختلفة المعنى متحدة المخرج. فأزال الفينيقيون منها تلك الصعوبة وصيروها بسيطة سهلة التناول.

---

[١] الفينيقيون لغتهم عربية، وهم كانوا أهل تجارة، ولهذا فاللغة التي تغلب عليهم، هي لغة علم، لا لغة أدب، وهذا معروف، يختلف الناس في اللغة التي يتكلمون بها، إذا جالست جماعة من أهل الأدب، واللغة، والتخصص الأدبي، تجد غالب كلامهم أدبيا، يغلب عليهم الطابع الأدبي، ولو جلست مع جماعة من أهل الحديث فغالب لغتهم تكون لغة يغلب عليها الطابع الحديثي، وهكذا قل في جماعة من التجار، أو جماعة من أهل السياسة، أو جماعة من العلم الاجتماعي، وهكذا، فيغلب عليهم المجال الذي هم فيه، فالفينيقيون كانوا أهل تجارة، فلغتهم لغة علم وليست لغة أدب، يعني لا يوجد فيها جماليات الأدب، وليس المقصود أنه ما عندهم أدب، لابد أن نفهم المراد بالأدب، لا يعني أن أنسانا لغته ليست لغة أدب يعني غير متخلق! ليس هذا، لأن اللغة الأدبية يغلب عليها جمال الألفاظ والفصاحة، والبلاغة، وجمال الأسلوب ودقة الألفاظ واختيارها ونحو ذلك.

[٢] بمعنى نقص وزال.

اختار الفينيقيون من الحروف المصرية اثنين وعشرين حرفا لكل حرف مخرج. ثم قلدهم فيها الإغريق فمن بعدهم من الأمم. وقسموها إلى حروف هجائية وأشكال للضبط.

ولما دخل هذا الخط ليبية مع أصحابه ووجد أمامه الخط الليبي تأثر به وتغير عن أصله فسمي الخط البونيقي.

وقد ألف بهذا الخط وتلك اللغة تآليف في الفلاحة والملاحة[1] والأسفار منها رحلة حنون الذي ارتحل حول إفريقية وبلغ شواطىء غينيا ومنها رحلة عملقون الذي بلغ سواحل انكلترا، ومنها كتاب ماغون في الفلاحة الذي أخذه اليونان والرومان إلى لغتهم واعتمدوه خصوصا في تنمية النباتات بإفريقية[2].

وللبونيقيين غير هذه الكتب بلغتهم وخطهم ضاعت بضياع ملكهم. ولم يبق منها إلا نتف مترجمة ومبعثرة في كتب اللطينيين وأكثرها ضاع في حرقي قرطاجنة، فضاع بذلك على الباحث الخط البونيقي واللغة البونيقية معا. وتلك عاقبة ذهاب مميزات هذه الأمة ومشخصات وجودها[3].

---

[1] ما يتعلق بالأمور البحرية.

[2] أخذ كتب السابقين من غير عزوها لأصحابها، وكم من المخطوطات للمسلمين، قد أخذت وسرقت من هذه الدول الغربية التي يقال فيها متحضرة الآن، ولا ينسبونها إلى أصحابها.

[3] على كلٍّ هم عرب كما ذكرت، ولغتهم قريبة من اللغة التي كان عليها البربر على قول من يقول إنها أيضا عرب، ولهذا وجد بينهم تقارب.

لعلنا نكتفي بهذا والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.